دور الوحدات العسكرية السودانية

فى ثورة ١٩٢٤

للدكتور احمد ابراهيم دياب
جامعة أم درمان الإسلامية

أقدم هذه الدراسة عن « دور الوحدات السودانية فى ثورة ١٩٢٤ » وهذه الفترة لم تدرس لذاتها بالتفصيل ، بل أن كل الذين تعرضوا لدراستها ربطوها بغيرها من الأحداث ولم يهتم أحد بوضعها فى موضعها وإعطائها ذاتيتها وكينونتها وذلك عندى لخوفهم من كشف حقائق هذه الفترة المعاصرة .

وما من شك فى أن الذين يرغبون فى تسجيل التاريخ المعاصر ودراسته على حقيقته فى مجتمعنا السودانى يتعرضون لامتحان عسير فى الجبن والشجاعة وهما أمران أحلاهما مر ، لأن الجبن بالمحاباة إهدار للذمة ، والأمانة ، والشجاعة ستجلب لصاحبها العداوة والكراهية والحقد فى مجتمعنا الذى يعيش على الشللية والاتجاهات ، ويفكر فى مصالحه الشخصية ، ويقدمها على المصلحة الوطنية . ومع ذلك فقد اخترت جانب الشجاعة المحضة فى هذه الدراسة معتمداً على الأسس التالية التى آليت على نفسى أن أسير عليها فى كل بحث أو دراسة أقدمها .

أولا : الفترة التى كانت هذه الدراسة جزءاً منها هى أدق فترات السودان المعاصر فى بنائه وطمس الحقائق التى صاحبت هذه الفترة وتزويرها وتعديلها

لمصلحة عهد من العهود أو وضع من الأوضاع ، تضليل أثر على مسيرة واستقرار السودان بعد الاستقلال .

ثانياً : العقلاء من الناس يقدرون الحقيقة ولاتهمهم الشخصيات مهما كان مركزها الاجتماعي أو وضعها العائلي أو المالي أو الطبقي الذي وصلت إليه في وقت من الأوقات وبطرقها الخاصة في عهد الاستعمار وبمساعدته ، ويجرون وراء البحث العلمي عنها . أما غير العقلاء في المجتمع أو الذين لا تهمهم مصلحة وطنهم فلا عبرة ولا أهمية لانعكاس الحقائق على نفوسهم لأنهم إما صاروا تبعاً لأفكار أو عقائد وهمية أو شخصيات رمزية اصطناعية .

ثالثاً : إن التاريخ المزيف مهما وجد من عناية وتأييد ورعاية لا يعيش إلا ريثما ينكشف وهو يدمر صاحبه حيا أو ميتا .

رابعاً : لم يمنعني حبي وتقديري لرجال كبار في المجتمع السوداني أن أسجل مواقفهم التي وقفوها في هذه الفترة وفقا لما تمخضت عنه الوثائق بعد تحليلها تحليلا علمياً موضوعياً .

وانطلاقا من هذه الأسس أقدم هذه الدراسة متحرياً بقدر المستطاع أن أكون محايداً ، أعطي كل ذي حق حقه، وان خالف مذهبه رأيي وفكرة وطنيتي، ولكني لم أستطع بحال من الأحوال أن أتغاضى عن كشف القناع عن وجه أعوان الاستعمار البريطاني وعن أساس المراهقين فكرياً وتجار الدين والمناصب لا لكراهيتي لهؤلاء أو أولئك ولا لما ألحقوه وما زالوا يلحقونه بالسودان من أذى وعنت وإرهاق وتضليل وجرياً وراء الحكم ، بل لجلاء الحقيقة التي تغاضى عنها السياسيون والباحثون والكتاب .

أما أحداث الدراسة فنقول :

اختلفت الروايات في التاريخ الذي تم فيه تكوين جمعية اللواء الأبيض

وذلك لأنها بدأت سرية أولا ثم كشفت الغطاء عن نفسها عندما أرسلت برقية إلى الحاكم العام فى ١٦ مايو ١٩٢٤ . وفى رأى المخابرات أن الجمعية قد تكونت فى أكتوبر ١٩٢٣ وكان اسمها « الشبيبة السودانية »[١] وتغير هذا الاسم إلى اللواء الأبيض فى مايو ١٩٢٤ عندما انعقد أو اجتماع حضره حسب قول تقرير المخابرات كل من الملازم أول على عبد اللطيف وصالح عبد القادر وحسن شريف وعبيد حاج الأمين وحسن صالح المطبعجى وأسطى رمضان محمد وإسماعيل ومكى ابراهيم المشلى وموسى لاظ وحسن مدحت وعز الدين راسخ وعلى أحمد صالح والطيب بابكر وأحمد المنياوى وأحمد المليجى وتوفيق وهبى ويوزباشى عبد الحميد حافظ ويوزباشى أحمد الصاوى وملازم فؤاد حافظ[٢] . وفى هذا الاجتماع تم اختيار اسم اللواء الأبيض اسما للجمعية، ويتضح من الأسماء التى ذكرتها والتى تعتبر بمثابة لجنة مركزية أن للنخبة العسكرية دوراً واضحاً فى العمل داخل التنظيم السياسى ومن هنا يظهر لنا أن كل ما حدث بعد ذلك بين صفوف العسكريين وفى وحداتهم تجاوبا مع فكر اللواء الأبيض لم يكن شيئا عفوياً بل كان نابعا من الصلة بالتنظيم السياسى .

وقد ظهرت هذه الصلة أول ما ظهرت عندما تم تكوين وفد من اثنين من أعضاء اللــــواء الأبيض ليحملا عرائض الولاء لمصر لتكون سندا للمفاوض المصرى ضد العرائض التى جمعتها الإدارة البريطانية بمساعدة السادة أعضاء وفد ولاء الأعيان الذى سافر لانجلترا فى ١٩١٩ ، وكان على رأسهم السادة على الميرغنى والشريف يوسف الهندى وعبد الرحمن المهدى وقد كان وفد الجمعية مكونا من الملازم أول زين العابدين عبد التام رئيسا للوفد وممثلا للجناح العسكرى فى الجمعية وكان معه فى الوفد محمد المهدى الخليفة عبد الله ليمثل الجانب المدنى .

وتكوين الوفد من عسكرى ومدنى يوضح نشاط اللواء الأبيض فى

الجانبين كما أن فيه تمثيلا للجانب الاجتماعي والوحدة الوطنية وهو أن الجمعية لاتؤمن بالفوارق الاجتماعية ولا بالعنصرية والقبلية بل أنها حاربت العنصرية والقبيلة والطائفية[3] التي ولدت وترعرت في أحضان الإدارة البريطانية وغذتها ورعتها السياسة الاستعمارية لتكون سلاحاً تضرب به وحدة الشعب السوداني وقتما تريد كما حاربت الجمعية القبلية في أبسط صورها بل أن الجمعية كانت بوتقة انصهرت فيها كل الفوارق الاجتماعية لتنصب في قالب الوحدة.

وفي ٢٣ يونيو ١٩٢٤ تم القبض على خمسة من أعضاء الجمعية بعد قيادتهم مظاهرة، وكان بينهم الملازم زين العابدين عبد التام وكانت المظاهرة تحديا لقرار مدير الخرطوم بمنع المظاهرات. وقد أرسل الضباط وضباط الصف المتقاعدين برقية إلى رئيس مجلس الوزراء المصري وضحوا فيها مشاركتهم للشعب واحتجاجهم ضد اعتقال المتظاهرين:[4]

« باسم الضباط والموظفين والشعب السوداني تحتج بشدة ضد اعتقال المتظاهرين الذين هتفوا بحياة مصر والسودان بعدما تم ضربهم بالسيوف وسجن خمسة منهم. أننا نؤكد لكم أن كل السودانيين غير مسئولين عن أي شيء ربما يحدث نتيجة لهذه السياسة ».

إمضاء ستة عشر ضابطا وصف ضباط بينهم اليوزباشي كبسون الجاك وعبد الله حسن وعبد الله نور وفرج أبو النجا.[5] وهذه البرقية تبين لنا المشاركة التامة بل التلاحم بين العسكريين حتى المتقاعدين منهم في الأحداث السياسية التي كانت تجري. ولم تقف المشاركة بإرسال البرقيات والعمل في الميدان السياسي بل أنها تطورت مع تطور الأحداث وتصاعدها فكانت أول مظاهر تلاحم العسكريين مع ثورة اللواء الأبيض ودورهم فيها.

مظاهرة طلاب المدرسة الحربية :

لقد كان للتصاعد السياسي الذي خلفته اعتقالات أعضاء اللواء الأبيض

وحاكمة على عبداللطيف ومحمد سر الختم المهندس بالرى دافعاً لطلبة المدرسة الحربية لكى يتفاعلوا مع المجتمع الذى يعيشون فيه . وقد أثارت مظاهرة طلبة المدرسة الحربية الجزع بين صفوف رجال الإدارة البريطانية ، وقد سبق أن حذر مكتب المخابرات من خطر الثورة بين الوحدات السودانية بحاميات الجيش المصرى . كما حذر السيد عبد الرحمن السلطات البريطانية، فى تقرير رفعه للمخابرات « رقم ١٠٩٠٥/٣٧١ ص ١٢ تقرير ايورت عن القلاقل السياسية فى السودان » فى ٣١ يوليو ١٩٢٤ ، موضحا احتمال ثورة تقوم بها الوحدات السودانية العاملة فى الجيش المصرى(٦) . بينما وصفهم السيد على فى خطاب له للحاكم العام بقولة « إن أصدقاء الحكومة المخلصين هم دافعى الضرائب أما أسوأ أعدائها فهم أولئك الذين يأخذون مرتبات من الحكومة مثل الموظفين والضباط السودانيين فى الجيش المصرى(٧) .

وهذا يوضح الخوف الذى استحوذ على الشخصيات الموالية للادارة البريطانية من نجاح الثورة خوفا على موقفها ومستقبلها الرهين بالوجود البريطانى .

لقد كان لتصريحات الزعماء الدينيين وأقوالهم ضد جمعية اللواء الأبيض دافعا لطلبة المدرسة الحربية لكى يتفاعلوا مع المجتمع الذى يعيشون فيه . فقد عادوا من أجازاتهم السنوية وانتظموا فى الدراسة فى آخر يوليو ويقول محمد عثمان عبدالبخيت أحد طلبة المدرسة فى مذكراته «سرى النشاط السياسى إلى مجتمعنا بسبب بعض التصرفات وبدأنا نجتمع بعد الساعة التاسعة ليلا سراً فى أحد عنابر الداخلية لنتداول الموقف وبدأ الحماس يسرى فى صفوفنا وفى مساء الجمعة ١٩٢٤/٨/٨ ، وفى اجتماع حضرناه كلنا قررنا أن نخرج فى الغد فى مظاهرة نعبر فيها عن سخطنا واحتجاجنا على مظالم الانجليز فى السودان ونؤيد فيها اتجاهنا نحو مصر »(٨) .

وقول محمد عثمان هذا يوضح لنا أسباب وهدف المظاهرة وهى :

أولا : الخروج فى مظاهرة للتعبير عن :

(أ) السخط على مظالم الانجليز فى السودان .

(ب) التظاهر للاحتجاج على تلك المظالم .

ثانياً : تأييد اتجاه وحدة وادى النيل وهو هدف اللواء الأبيض(٩) .

وفى صباح السبت ٩ أغسطس خرج الطلاب إلى ميدان المدرسة وكل واحد منهم يحمل بندقية وخمسين طلقة رصاص. وقبل الخروج من المدرسة قام الطلاب بتبليغ الضابط المسئول بقرارهم وفى الساعة السادسة خرج الطلاب من سور المدرسة بهيئة منظمة تحت قيادة بتجاويش الفرقة محمد فضل الله الشناوى(١٠) . وتوقفت المظاهرة عند سكنات عباس التى كانت بها أورطة مصرية وهتف المتظاهرون بحياة الملك فؤاد الأول ثلاث مرات ثم استأنفوا سيرهم إلى محطـــة سكة حديد الخرطوم حتى يتمكن مسافروا قطارات خط الأبيض وبور سودان وحلفا / مصر من نقل خبر المظاهرة إلى الجهات الثلاث ناهيك عن نقلها للصحف المصرية كما ينقل خبرها المودعون إلى ذويهم فى العاصمة . وكانت المحطة مليئة بالمسافرين والمودعين الذين انضم جزء منهم إلى المتظاهرين وساروا خلفهم يهتفون بحياة مصر والسودان(١١)

ومن محطة الخرطوم توجهت المظاهرة إلى منزل على عبد اللطيف — وكان بالقرب من المحطة خلف داخليات كلية الطب — وكان على مسجونا فى سجن كوبر ، فأدوا التحية العسكرية للبطل السجين وهتفوا بحياته وقد خرجت زوجته ومعها نساء الحى يحيين الطلاب بالزغاريد . وظلت جماهير الشعب تسير وراء المظاهرة بعضهم يتابعها فى إعجاب بالبطل وتأييد لهدفها

والبعض تابعها ليشبع هتافاً ويرتوى نداء وليفنس عن شعوره المكبوت ويشدون مع الطلاب أناشيد خليل فرح فنان الثورة وشاعرها :

نيلنا يا نيل الحياة حياك حيـــاك الحيـا

ونشيد :

نحن ونحن الشرف الباذخ دابى الكر شباب النيـــل

وتردد نشيد الشاعر عبيد عبد النور :

يا أم ضفاير قودى الرسن واهتفى فليحيا الرسن[12]

وعند ميدان عباس - هيئة الأمم حالياً - اعترض المظاهرة اللواء مكاون باشا قائد الخرطوم وأمر الطلاب بالرجوع إلى ثكناتهم . وكان ردهم حازماً حاسماً مثل قرارهم فى الخروج «كل من يعترض سبيلنا سيلقى حتفه»[13] . فانسحب مكاون أمام إصرارهم . وتقدمت المظاهرة حتى وصلت مكان مبنى بنك السودان حالياً بالخرطوم وفى منتصف شارع الخديوى إسماعيل - الجامعة حالياً - كمنت لهم قوة مكونة من رجال البوليس والتمايشة المسلحين بالعصى الغليظة والذين استخدمتهم السلطات البريطانية لتفريق مظاهرات اللواء الأبيض ومعهم قمندان البوليس ومستر بيلى نائب مدير الخرطوم . فاتخذ الطلاب تشكيلا عسكريا استعداداً للمعركة لولا أن تدخل اللواء مكاون الذى تابع المظاهرات فأمر البوليس بالانصراف وأنقذ الموقف[14] .

اتجهت المظاهرة شرقاً بشارع الخديوى - الجامعة - حتى قصر الحاكم العام حيث وقفت ورددت الهتاف بحياة سجناء اللواء الأبيض وبحياة السودان ومصر وسعد زغلول وعلى عبد اللطيف وبسقوط الإنجليز . ولم يعترض طريقها أحد ولم يتعرض لها حرس القصر ، واستمرت فى سيرها

شرقا حتى عبرت كوبرى النيل الأزرق إلى السجن العمومى « كوبر » فأدت التحية العسكرية أمام السجناء السياسيين وهتفت بحياة على عبد اللطيف وحياة السودان ومصر (١٥) .

بعد أن أدت المظاهرة مهمتها بنجاح وأبرزت شعورها واحتجاجها رجع الطلاب إلى داخلياتهم بالمدرسة فوجدوا أن السلطات الإنجليزية قد جردت المخازن من السلاح والذخيرة أثناء غيابهم بل أن المدرسة قد أحيطت بقوة من الجيش الإنجليزى بعد أن دخل كل الطلاب فيها ووقف الجنود الانجليز فى حالة استعداد لاطلاق النار كما أمر قائدهم الطلبة بتسليم سلاحهم فرفض الطلاب بل استعدوا من جانبهم بأن قاموا باحتلال مواقع دفاعية فى داخل المدرسة وسطوح مبانيها (١٦) .

وفى تلك اللحظات الحرجة تدخل بعض الضباط السودانيين لتسوية الموقف ولتخفيف حدة المواجهة وتهدئة الثورة بإدخال أسلوب المفاوضة والمساومة وكان هؤلاء الضباط اليوزباشية عبد الله خليل وأحمد عقيل وبلال رزق وطلب الضباط من الطلاب أن يسلموا سلاحهم ، وهو نفس الأمر الذى أمر به الجيش الانجليزى من قبل ، وهنا اشترط الطلاب أن تنسحب القوة الانجليزية أولا مقابل إلقاء السلاح . وجرت مشاورات سريعة وافقت بعدها القيادة الانجليزية على سحب قواتها على أن تحل محلها فرقة مصرية وسلم الطلاب أسلحتهم لأركانحرب المدرسة (١٧) .

واستسلم الطلبة وفرضت حراسة صارمة ورقابة دقيقة حول المدرسة وأضيئت الأنوار الكاشفة ليلا ووجهت داخل المدرسة لرصد أى تحركات الطلاب أثناء الليل حتى لا يحدث شىء مفاجىء وغير متوقع منهم نحو الساطة أو يتصلوا بأى جهة خارج المدرسة . وبقى الطلاب ثلاثة أيام داخل أسوار المدرسة وهم ينشدون الأناشيد الوطنية والأغانى الثورية . وخافت إدارة

المخابرات من قيام اتصالات بين الطلبة والفرق السودانية التي لا يقر لها قرار(١٨)، فساقت الطلاب من المدرسة ووضعتهم في سجن عائم وهو عبارة عن باخرتين (الملك والشيخ) أوقفتا وسط النيل الأزرق أمام مباني كلية غردون بعيداً من أن يصلهم أحد أو يتصلوا بأحد وهناك واصل الطلاب هتافاتهم وأناشيدهم وظلوا سابحين على البواخر إلى أن بدأت محاكمتهم العسكرية في ٢٧ أغسطس .

ويعزى تقرير مستر ايورت الذي كتب في منتصف ١٩٢٥ إلى أن أسباب ودوافع مظاهرة طلبة المدرسة الحربية إنما هي شخصية بحته وهي أن أوامر عسكرية صدرت بترقية اثني عشر طالباً من المدرسة الحربية في القاهرة وترقية اثنين فقط من مدرسة الخرطوم ولذلك خرجوا احتجاجاً على عدم ترقيتهم(١٩) . ولنفي هذا الافتراض البعيد عن الحقيقة أود أن أعرض خطاباً أرسله الحاكم العام بالإنابة مستر ولسي إلى اللورد اللنبي معلقاً فيه على المظاهرة وذلك في ٢١ أغسطس حيث قال « قبل حادثة مدرسة الخرطوم الحربية كان مظهرهم الخارجي ينم عن حسن النظام والرضا والطاعة ومن أكثر الأجهزة الحربية ولاء في السودان . لكن استمرار رأى موحد للطلبة والسرية التي أحيكت بها المؤامرة حتى نفذت تظهر على أنها كانت نتيجة لدعاية ماهرة ذكية ضد البريطانيين ولربما نجحت إلى حد غير متوقع »(٢٠) .

وأرى أن المقصود بهذا الوصف دعاية ذكية ضد البريطانيين أعضاء اللواء الأبيض ومؤيدوها وقد اتهمت السلطات بعض المتقاعدين من الضباط والذين عرفوا بتأييدهم للواء الأبيض حيث قالت « يبدو أن الملازم أول معاش سليم الأمين وملازم أول متقاعد محمد شناوي وملازم أول موسى الله جابو كان لهم دور في قيام التمرد لأن محمد شناوي هذا له ابن وهو البشجاويش في المدرسة الحربية وقد جره والده في المناقشات معه »(٢١) .

ومما يؤكد القول بأن المظاهرة نتاج طبيعى لفكر اللواء الأبيض قول المخابرات بأنه بين « المدة من سبتمبر ١٩٢٣ إلى يونيو ١٩٢٤ أثبت أن على عبد اللطيف استطاع أن يؤسس جمعية ذات نفوذ واسع . وقد استطاع نفوذ على عبد اللطيف أن يتسرب إلى المدرسة الحربية وقد سماه الطلبة « الأمل الأسود » وهو البطل الوطنى وسار من وراءه الضباط السابقين والسودانيين »(٢٢) .

واهتمت السلطات بالمظاهرة اهتماماً كبيراً وذلك لأن عدداً من الطلاب من أسر سودانية ذات نفوذ دينى وقبلى وتجارى فى أجزاء مختلفة من السودان اشترك فيها وإن أى عمل تجاه أبنائهم الطلاب سيؤثر على العلاقة بين الحكومة وهذه الفئة(٢٣) .

ويقول أحمد بكر مصطفى(٢٤) أن الذين أعدوا وخططوا للمظاهرة هم كل من محمد فضل الله الشناوى وإدريس عبد الحى ومحمد عبد العظيم خليفة وأحمد بكر مصطفى .

وفى نفس اليوم الذى حدثت فيه مظاهرة طلبة المدرسة الحربية ضد السلطات البريطانية قامت فى عطبرة مظاهرات استمرت لمدة ثلاث أيام متواصلة ، كانت نتيجتها لأول مرة عدد من القتلى وتخريب شامل لورش السكة الحديد .

موقف الوحدات العسكرية بالأقاليم

لقد أثارت مظاهرة طلبة المدرسة الحربية الجزع بين صفوف رجال السلطة الانجليزية وقد سبق أن حذر مكتب المخابرات من خطر الثورة بين الوحدات السودانية بحاميات الجيش المصرى وهم الذين وصفوا خطأ بأنهم الضباط السود المنحدرين من سلالة الرقيق »(٢٥) . وقد رددت هذه العبارة

من قبل المخابرات ونفس هؤلاء وأولئك أن الضباط السود من سلالة القبائل النيلية على الأخص الدينكا الذين هاجروا أسلافهم أو أخذهم محمد على بعد مد الادارة المصرية للسودان فى عشرينات القرن التاسع عشر ليؤسسوا جيش محمد على الحديث ولم يكونوا رقيقاً قط . وهذه نغمة أثارها الانجليز لتسير عليها سياسة فرق تسد التى تسميهم بالضباط السود وتسمى غيرهم بالعرب بل وتصفهم بأنهم العنصر الأكثر تأثراً – سياسياً هم الضباط السود المفصولين والذين فى المعاش ولقد عرفوا بخطورتهم وتهديدهم وهذه الطبقة تتكون من الضباط ذوى الشخصية القوية من أرباب المعاشات وأيضاً الضباط الذين فصلوا بعد تقديمهم لمحاكم عسكرية تأديبية بسبب مخالفات عسكرية وهم ينحدرون أصلا من سلالة الرقيق الذين أبرزتهم يد القدر فى كل التاريخ السياسى للسنوات الأخيرة(٢٦) .

لقد برز موقف الوحدات العسكرية فى الأقاليم فى أربعة أحداث هى :

١ - حادثة العلم فى واو :

بدأ الحادث فى يوم ٢٤ أغسطس حين رفعت السلطات العلم المصرى القديم ذى اللون الأحمر بدلا من العلم الأخضر الجديد على مبنى المديرية فى صباح ذلك اليوم وتورد المخابرات بأن مدير المديرية قد رفع العلم الأحمر القديم لأنه كان يرفع علما مصرياً أخضر اخاصاً بالجيش(٢٨) وليس بالمديرية وبما أنه عرف أن هنالك اختلافا بين علم الجيش وعلم المديرية ففضل أن يرفع العلم القديم الأحمر بدلا من الأخضر الذى يخص الجيش . وهذا بالطبع تبرير لما حصل وقد كان رد الفعل قوياً من ضباط الوحدات العسكرية التابعين للقوات المصرية ، فقد وجه أحد الضباط نظر مدير المديرية للتغيير الذى حدث فى العلم وسئل عن سبب تغييره وأن فى هذا إساءة لهم وقد رد مدير المديرية بما أوردته المخابرات سابقاً . واستاء كل الضباط ومأمور

المركز مما أدى إلى أن يرفعوا الاحتجاج كمجموعة لمدير المديرية ثم أرسلوا برقية احتجاج لوزير الحربية بواسطة القائد العام يحتجون على مافعله مدير المديرية موضحين ان عمله انما هو اهانة مقصودة للعلم المصرى. كما أن المدير عندما سئل لم يعط مبررات[٢٨] . وبما أن الحادث طفيف إلا أن الضباط من أعضاء اللواء الأبيض قد أحسنوا استغلاله وعلى رأسهم الملازم أول زين العابدين عبد التام الذى نقل إلى واو للتخلص من أفكاره الثورية ولتعتبر له كنفى واعتبرت المخابرات أن الضباط المنتمين للواء الأبيض وراء حوادث الإثارة والعنف وأنه من الواضح أن لهؤلاء الضباط صلة بالخرطوم ومصر وأن هناك خطة موحدة لإثارة حوادث متعددة لتكون دليلا على أن الجنوب كالشمال يزأر تحت حكم الاستعمار البريطاني[٢٩] .

واتهمت السلطات البريطانية بعض الضباط المصريين بالإضافة للسودانيين بأنهم وراء حادث العلم فقامت بمحاكمة اثنين منهم باعتبارهم من زعماء الحادث فى محكمة عسكرية قررت نقلهم للقاهرة .

وقد علق تقرير ايورت عن اشتراك الضباط السودانيين فى حادث واو بقوله إن طبيعة قسم يمين الطاعة الذى أداه الضباط لمصر وتطلعاتهم الوطنية التى اكتسبوها من اتصالهم بالطلاب وطبقة الخريجين هى من أهم الأسباب[٣٠] .

٢ – مظاهرة ملكال العسكرية :

فى عيد الأضحى فى سبتمبر ١٩٢٤ أقيم احتفال عام بالعيد بمعسكر ١٢ جى أورطة سودانية ضم الموظفين والتجار والضباط والجنود فى ملكال وقام اليوزباشى المصرى نصر الدين بالقاء خطاب سياسى ندد فيه بالاستعمار وطالب بخروج الانجليز من البلاد وشجب محاولة الحصول على توقيعات من الموظفين والتجار لضم السودان للتاج البريطاني حانا الانضمام لمصر .

للعمل يدا واحدة ضد العدو المشترك ليحيا وادى النيل حياة طيبة[31] .

وكانت نتيجة الخطبة أن أعتقل فوزى ووضع بالسجن وتلا اعتقاله ضغط شديد من جانب الانجليز وسوء معاملة جعلت الأورطة فى حالة تذمر أدت إلى أن يقوم الجنود بالتظاهر والثورة وقد جابوا الشوارع فى مظاهرات صاخبة ضد ما رأوا أنه إساءة عامة لقائدهم الأعلى الملك فؤاد وذلك من ضابط بريطانى فقاموا بصرف الذخيرة لأنفسهم وأقاموا حراسة على مخازن الذخيرة وسارت الأورطة فى هيئة طابور تعزف أمامه الموسيقى وترفع صورة الملك فؤاد هاتفة بحياته وحياة مصر والسودان وسقوط انجلترا[32] وانضم الموظفون المدنيون للمظاهرات مما أدى إلى أن يوجه الإنجليز اللوم لكل من الضباط السودانيين والمصريين بالحامية وموظفى الرى المصرى[33] .

وفى اليوم التالى قبض على خمسة من ضباط الصف من بينهم على رمضان جابر وسعد سعيد عبدالله وسليمان داود وعبدالله حبيب الله الذى كان يحمل صورة الملك . وبعد القبض عليهم أرسل انذار من مجهول إلى قائد الأورطة الانجليزية بتهديده بالقتل وجميع الانجليز كما جرت محاولة لحرق منزله واتهم بارسال خطابات التهديد وإثارة الجنود وصف الضباط للتظاهر عدد من الضباط السودانيين والمصريين الذين أمروا بالقيام للخرطوم وهم كل من الملازم ثانى عبد العزيز حيدر ، محمد شريف ، على البنا ، عزيز شريف ، ومحمود التومى الذى نقل إلى ١٠ جى أورطة بتلودى[34] .

وحكم على ضباط الصف الخمسة لمدة تتراوح بين سنتين وستة سجنا مع تخفيض رتبهم إلى درجة نفر ونقلوا للسجن الحربى بالخرطوم وبالرغم من ذلك طلب مدير المديرية ارسال نجدات سريعة له وأرسلت له فرقة انجليزية على باخرة خاصة خوفا من قيام مظاهرات جديدة[35] .

٣ ـ أحداث تلودى :

كانت حادثتا واو وملكال نذيرا بالحوادث اللاحقة فى وسط الفرقة العسكرية .

كانت الأورطة العاشرة السودانية معسكرة فى تلودى عاصمة مديرية جبال النوبا وكان كل ضباط الأورطة مصريين ما عدا ستة منهم سودانيين وقائد الأورطة انجليزى ، ولما حدث اغتيال ستاك بمصر وما تبعه من انذار وأمر ابعاد الجيش المصرى من السودان ، جمع قندان الأورطة من جنود وضباط سودانيين ومصريين وبعد أن قرأ علينا قرار الحكومة الانجليزية والقاضى بابعاد القوات المصرية من السودان طلب من الجنود مغادرة الطابور إلى حيث يسكنون ورجع الضباط المصريون إلى المعين ولم يبق غير السودانيون وهم :

اليوزباشى خضر على ، والملازمين محمد جلال وعبد الحميد فرج الله ، سيف عبد الكريم ، محمد صديق ومحمود التومى »[٣٦] .

استاء الضباط السودانيون من هذا التصرف واتفقوا على الوقوف بجانب إخوانهم الضباط المصريين . واجتمع الضباط الستة باخوانهم المصريين داخل ثكناتهم واقسموا بأن لايخرجوا لطابور طرد منه الضباط المصريون وكان ذلك فى يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٣ . ويقول عبد الرازق ريحان « ان الضباط السودانيين قد اتصلوا بالقومندان الانجليزى وأبلغوه بأنهم لا يتخلون عن زملائهم الضباط المصريين وبما أنهم يدينون بالولاء لملك مصر فليس أمامهم إلا الرحيل إلى مصر مع أولئك الضباط . وطلب القومندان منهم تسليم مسدساتهم ليتسنى له الإستجابة لرغبتهم والسماح لهم بمرافقة الضباط المصريين فرددوا القومندان فاتصل بالمدير الانجليزى نورسكوت الذى وضعهم مع الضباط المصريين بالحبس الاجبارى فى الميس

وأنتدب سرية تتألف من ٤٤ جندى و٢ صف ضابط ومع كل واحد منهم ٧٥ طلقة وأمر أولئك الجنود بعمل كردون على الميس»[٣٧] .

وفى اليوم التالى ٢٥ نوفمبر استطاع أحد الضباط السودانيين أن يرسل خطاباً لجاويش طالباً تخليصهم من الاعتقال فقام الجاويش بجمع ٤٠ جندياً وبعد أن أقسموا جميعاً على المصحف توجهوا إلى مكان اعتقال الضباط حيث استطاعوا أن يستبدلوا الحرس الموجود وبعدها إطلاق سراح الضباط وتسليمهم مسدساتهم وبذلك صارت الأورطة فى حالة ثورة كاملة بعد أن استولوا على مخازن الذخيرة واستقلت الأورطة بزمام الأمر فى المدينة بقيادة اليوزباشى خضر على والملازم ثان عبد الحميد فرج الله مما اضطر السلطات البريطانية إلى استقدام قوة الهجانة من الأبيض لتعين على استرداد الموقف كما قامت ٣٢ عربة مدرعة من الخرطوم تحمل فرقة من الجيش الانجليزى[٣٨] .

وبعد جهود سلمية عنيفة استسلم الثوار فى ٢٨ نوفمبر واعتقل الضباط الستة وأرسلوا للخرطوم واعتقلوا فى الطابية الانجليزية ثم حوكموا بعد ذلك . أما الأورطة فقد تم تسريحها بعد الحادث مباشرة .

٤ — مظاهرة الهجانة بالأبيض :

كان اليوزباشى محمد صالح جبريل قائداً لبلوك الهجانة بالأبيض عاصمة كردفان وقد تمكن من إثارة قوات الهجانة حيث طاف بهم المدينة جنوده بين زغاريد النساء وهتاف الرجال بحياة ملك مصر والسودان ، وحياة سعد زغلول ، فاعتقل وأرسل إلى سجن كوبر بالخرطوم بحرى ، إلى أن حوكم فيما بعد[٣٩] .

ملحمة ٢٧ نوفمبر

لم يكد الحديث فى المجتمع يهدأ بعض الشىء عن مظاهرة المدرسة

الحربية بالخرطوم حتى فوجئت العاصمة بصوت الرصاص يدوى من الجانب الشرقى منها وعرف أن عدداً من الضباط والجنود أرادوا أن يجتازوا كبرى النيل الأزرق فى طريقهم إلى الخرطوم بحرى بغرض الاتصال بالجيش المصرى الذى كان يتأهب لمغادرة السودان إثر الأزمة الانجليزية المصرية بعد اغتيال سير لى ستاك حاكم عام السودان بمصر والإنذار البريطانى للحكومة المصرية بخروج الجيش المصرى من السودان .

كانت القوة السودانية المتجهة صوب الخرطوم بحرى تتكون من نحو ١٢٠ جندياً ولكنها قوة ممتازة مكونة من ضباط الصف المدربين تدريباً عالياً على استعمال الأسلحة ومن الكتيبة ١١ جى أورطة السودانية بقيادة عدد من الضباط هم عبد الفضيل ألماظ وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وسليمان محمد وسيد فرج وعلى البنا[٤٠] . وتزودت القـــوة بكل الذخيرة الموجودة فى مدرسة ضرب النار فكان فى حوزتهم زيادة على بنادقهم أربعة مدافع مكسيم وعدد من صناديق الذخيرة ، وقام سيد فرج قبل أن تتحرك القوة بفك سراح جميع الجنود الذين كانوا فى السجن الحربى ، وكان عددهم نحو الستين وسلمهم حسن فضل المولى سلاح بدون ذخيرة وطلب منهم الحصول على ذخيرة والانضمام إلى عبدالفضيل ألماظ كقوة احتياطية[٤١] .

وفى نحو الساعة الرابعة مساء يوم ٢٧ نوفمبر خرجت هذه القوة فى قوة وصرامة واستقبلتها شوارع العاصمة بجماهير معجبة وهى تسير من ثكنات توفيق متجهة إلى كبرى النيل الأزرق عن طريق شارع الخديوى « الجامعة حالياً » مارة برئاسة الجيش المصرى « البوستة حالياً »[٤٢] . ويقول على البنـا « وقد احتك بنا إنجليزى خرج من دكان حلاق وشق صفوفنا ومنعه سليمان محمد من المرور بين الصفوف وقد هدده بالمسدس فرضخ وانصرف وبعد قليل جاء اللواء مكاوى وسألنا هل تريدون ضرب الجيش الانجليزى؟

فقلنا له لا ، وإن غرضنا أن نذهب للخرطوم بحرى لكى ننضم لإخواننا المصريين باعتبارنا مقيدين بيمين الولاء والطاعة إلى مصر مع الجيش المصرى. فطلب أن يذهب الضباط ويبق العساكر فرفضنا . وبعد ربع ساعة جاءنا هدلستون باشا نائب السردار ، وطلب منا أن نتفاوض معه فرفضنا وقلنا إننا لا نعرف هدلستون باشا بل نعرف رفعت بك فقط وإن المفاوضة مع رفعت بك فى بحرى »[٤٣] .

واستمروا فى سيرهم نحو الخرطوم بحرى وبالقرب من «وزارة الثروة الحيوانية حالياً» مبنى المجلس الطبى وقفت القوة السودانية عندما رأت أمامها الجيش الانجليزى يسد شارع الخديوى ، وقد احتل كلية غردون بقسميها الكليات والداخليات وأخذت تشكيلا حربياً لتتصدى للقوة السودانية وترغمها على الرجوع ، كما فتح كبرى النيل الأزرق – الموصل بين الخرطوم والخرطوم بحرى – ليستحيل عليهم الذهاب لبحرى أو وصول أى قوات من بحرى[٤٤] .

وبعد ذهاب هدلستون أطلقت القوة الانجليزية طلقات فى الهواء إرهاباً وتخويفاً ، فما كان من ضباط القوة السودانية إلا أن أمروا جنودهم أن يتحصنوا بالجداول على طرفى الشارع وصوبوا نيرانهم الحامية بسرعة خاطفة على الجنود البريطانيين فأبيد عدد من جنود الفرق الانجليزية المرابطة .

ويقول على البنا « ولا أبالغ إذا قلت إن أورطة بحالها قد أبيدت أى حوالى ٦٠٠ جندى من فرقة الاسكتلنديين» وتقول جريدة الرأى العام إن العدد الذى أبيد بلغ السبعمائة جندى ، ويقول تقرير المخابرات ، كانت ضحايانا كثيرة[٤٥] .

وظلت الملحمة دائرة بعنف ولم تبدأ حتى منتصف الليل ، ويقول البنا « إنه فى حوالى الساعة الحادية عشر مساء جرح عبدالفضيل الماظ ، فأرسلته

المستشفى العسكرى « رئاسة وزارة الصحة حالياً » بجوار مكان المعركة ومعه حرس اثنين عساكر ولكن للأسف كان حكيمباشى المستشفى الانجليزى مجرداً من الإنسانية فبدلا من إسعافه قتله ، وكان حرس عبد الفضيل ألماظ جاويش من جبال النوبا اسمه أرتيكو فجاء فى حالة حزن وأخبرنا بأنه قتل الضابط الانجليزى واثنين شوام انتقاماً لقتل ألماظ »[46] ، وهذا القول يبرز شيئاً جديداً عن موت عبد الفضيل الذى أوردته كل الكتب والصحف التى تناولت الحديث عن ملحمة ٢٧ نوفمبر بأنه استشهد وهو يحمل مدفعه المكسيم إلى أن تحطم فيه جانب من مبنى المستشفى[47] .

واستمرت الملحمة بين الفريقين حتى صحوة يوم الجمعة ٢٨ نوفمبر وقد نفدت الذخيرة من بعض الجنود السودانيين قرب منتصف الليل ، فأخذوا يتسللون ويختفون . وقد تمكن سيد فرح من عبور النهر إلى الخرطوم بحرى حيث اتصل بالجيش المصرى وسافر معه «أما سليمان محمد وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وأنا ، فقد اجتمعنا بعد أن صارت القوة غير متكافئة وعرفنا العساكر ليدافع كل عن نفسه وذهبنا إلى أم درمان بمراكب السمك وللأسف انضم بعض الضباط الذين كانوا معنا للقوات البريطانية ووجهوا مدافعهم علينا من الخلف من رئاسة الجيش المصرى وقد عبر بعض هؤلاء عن هذه العملية بأنها شغل أولاد»[48] .

ومنذ مساء ٢٨ نوفمبر شرعت السلطات فى إلقاء القبض على الضباط المشتركين والمتهمين ومن يعثر عليه من الجنود الذين تسللوا بعد نفاد ذخيرتهم ، وبمجيء مساء السبت ٢٩ نوفمبر كان قد تم اعتقال كل من سليمان محمد وثابت عبد الرحيم وعلى البنا ، أما حسن فضل المولى فقد سلم نفسه ، وهكذا انتهت ملحمة ٢٧ نوفمبر التى وصفها الشاعر السودانى حسين منصور بقوله :[49] .

يا لها ليلة ويوماً عبوساً — تركا الشعب شاخصاً للسماء
يسأل الله رحمة ومصيرا — كاملا فى الحقوق حتى البقاء
عاش أهل الجنوب أخوة مصر — فى الضحايا وعاش كل فدائى

وقد شهد البريطانيون بموقف الذين اشتركوا فى ملحمة ٢٧ نوفمبر حيث وصفوهم بأنهم قاوموا مقاومة عنيفة وإن الأمور لم تعد إلى مجاريها إلا بعد أن استعان الجيش خلال أربع ساعات بمدافع قاذفة ... وبنادق سريعة الطلقات [٥٠] .

إن ما حدث فى عصر الخميس ٢٧ نوفمبر ١٩٢٤ لم أحد تعليلا لأسبابه المباشرة حتى الآن . وما قيل من الأسباب هو فى الغالب ما استنبط من ظروف الأحداث وما أدى إليه الاستقراء العام . ومما قيل فى أسباب تلك الملحمة الدامية ، إن الحادث كان نتيجة مؤامرات ضد الانجليز دبرت فى مصر وهذا التمرد يظهر أنه نفذ بناء على أمر آخر من القائمقام أحمد بك رفعت من المدفعية وغيره من المصريين . وقد وعد الضباط الذين قاموا بتحريض رجالهم ضد الانجليز على أنه بعد إطلاقهم القذيفة الأولى فإن المدفعية المصرية ستشترك معهم بضربها الطابية والقصر وثكنات الجيش الانجليزى [٥١] .

هذا ما كان يتصوره أو يقدره الحكم الانجليزى فى السودان إنه السبب المباشر ويدحض هذا الزعم ما قاله أحد زعماء الملحمة « اجتمعنا نحن الضباط الستة الموجودين ، وقررنا باعتبارنا مقيدين بيمين الولاء والطاعة لملك مصر أن ننضم إلى القوات المصرية وننفذ تعليمات رفعت بك سواء بالبقاء فى السودان أو السفر إلى مصر مع الجيش بعد حضور مندوب الملك» [٥٢] .
وهذا القول يوضح أن الضباط السودانيين كانوا يريدون الانضمام لقيادة رفعت بك وفاء للقسم الذى أدوه بالولاء لملك مصر وهو قائدهم الأعلى وأنهم يريدون الهجرة لمصر لتأمين مستقبلهم فى الجيش المصرى . وهذا الرأى هو

الذى أراه يجرى فى مجرى الواقع ، ويؤيده قول أحد الذين قادوا واشتركوا فى الملحمة .

أما الوجه الآخر للمعادلة وهو مسألة وعد الجيش المصرى بالتدخل فى الوقت المناسب وبعد أن يشعل السودانيون الفتيل فينفى الإجابة بنعم إنه لم تتحرك أى كتيبة مصرية خاصة والقتال كان يدور قريباً من كوبرى النيل الأزرق حيث كان الجيش المصرى يعسكر على البر الشرقى فى الخرطوم بحرى ، أو على بعد لا يزيد عن الميل ، وإن القتال استمر ليل الخميس وصباح الجمعة .

الحواشى

(١) F: O. 371/100537 page 17.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥

(٣) intell. 11. 6/14/40 No. 359 Apprendinse.

(٤) عبد الكريم السيد : اللواء الأبيض ثورة ١٩٢٤

(٥) Intell. 11. 6/14/40 No. 359 page 12.

(٦) F. O. 371/10905 page 12.

(٧) المرجع السابق تقرير ا . يورت .

(٨) جريدة الرأى العام عدد ٣١ مارس ١٩٥٦ ذكريات محمد عثمان عبد البخيت .

(٩) المرجع السابق .

(١٠) F. O. 371/10905/page 35.

(١١) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح من أجل الوحدة ص ٢٣

(١٢) حسن نجيله ملامح من المجتمع السودانى ص ١٨٤

(١٣) الرأى العام : عد ٣١ مارس ١٩٥٦ م.

(١٤) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح ص ٢٤

(١٥) الرأى العام : عدد ٣١ مارس ١٩٥٦

(١٦) Intell No. 361/ Aug. 1924 page. 5.

(١٧) الرأى العام عدد ٣١ مارس ١٩٥٦

(١٨) Intell. No. 361/Aug. 1924. Apperdix s.

(١٩) F. O. 371. 10905. page. 24.

(٢٠) F. O· 371/10053/telegram from Sterryto Allenly.

(٢١) palace ; 4/9/47 p. 1153.

(٢٢) Intell No. 361 Aug. 1924.

(٢٣) Ibid. page. 5.

(٢٤) من طلبة المدرسة الحربية — أقواله إلى لجنة تكريم ثوار ١٩٢٤

(٢٥) Bakhti. G. M. A. British Adminstrtionand sudanese Nationalism p. 96.

(٢٦) F. O. 371/10905. reperton Political Agitation.

(٢٧) F. O. 371/10905/page/13

(٢٨) intell : 6/14/46. No. 361/page 8.

(٢٩) F. O. 371/10905 page 14

(٣٠) F. O. 371/10905 page 14.

(٣١) من أقوال على رمضان جابر الجندى سابقا فى ١٢ أجى أورطة فى ملكال حين أخذت أقواله عند تكريم ثوار ١٩٢٤ محفوظة بدار الوثائق المركزية / الخرطوم .

(٣٢) palace : 4/9/42 page 8:5. 25/9/1925.

(٣٣) F. O. 371/10905 page 14.

(٣٤) المصدر السابق ص ١٤

(٣٥) المصدر السابق ص ١٥

(٣٦) من حديث عبد الرازق ريحان الذي كان جندى برتبة امباشى فى تلودى سبتمبر ١٩٢٤ وشارك فى هذه الأحداث — أخذت أقواله عند تكريم ثوار ١٩٢٤ . محفوظة بدار الوثائق المركزية بالخرطوم .

(٣٧) المرجع السابق .

(٣٨) F. O. 371/10905. page 16.

(٣٩) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح حول الوحدة ص ٥٨

(٤٠) على البنا : من حديثه فى مقابلة لى معه يوم ١/٧/١٩٢٤ بمنزله فى القاهرة .

(٤١) حسب الخريطة فى الملحقة .

(٤٢) Intell : 6/14/46 No. 364 nov 1924.

(٤٣) حسب الخريطة فى الملحقة .

(٤٤) من حديث مع على البنا .

(٤٥) جريدة الرأى العام عدد مارس ١٩٥٦

(٤٦) من حديث مع على البنا (لواء م) .

(٤٧) من حديث مع على البنا (لواء م) .

(٤٨) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح حول الوحدة ص ٨٥

(٤٩) من حديث مع على البنا (لواء م) .

(٥٠) قصيدة الشاعر السودانى/حسين منصور نشرها محمد عبدالرحيم فى كتابه الصراع المسلح حول الوحدة ص ٥٨

(٥١) F. O. 371/10905 page 12.

(٥٢) Intell : 6/14/46 No. 364 nov 1924.

(٥٣) من حديث مع على البنا (لواء م) .

مصادر البحث

مراجع :

عبـــد الكريم : اللواء الأبيض ثورة ١٩٢٤ مذكراته ونشرته شعبة أبحاث السودان ١٩٧٠ .

محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح على الوحدة فى السودان . القاهرة بدون تاريخ ، مخزون الباحث .

المتطلع (حامد القرضاوى) ضحايا مصر فى السودان وخفايا السياسة البريطانية ١٩٣٥

سليمان كشة : أسرار ووثائق تاريخية ، بدون تاريخ ، الخرطوم .

« « : محاكمات اللواء الأبيض « «

« « سوق الذكريات ، ١٩٦٣ الخرطوم .

محمد لبيب الشاهد وأحمد بك رفعت : مذكرتان عن أعمال الجيش المصرى فى السودان ومأساة خروجه منه — الاسكندرية ١٩٣٦

حسن نجيله : ملامح من المجتمع السودانى — بيروت ١٩٦٤

داؤد بركان : السودان المصرى ومطامع السياســـة البريطانية — مصر ١٩٢٤

مبارك بابكر الريح : ثورة ١٩٢٤ — الخرطوم .

(ا) وثائق غير منشورة :

١ — أوراق وبحث الخاصة بجامعة درهام بانجلترا .

٢ — وثائق مركز المحفوظات العام — لندن . F.O.

٣ - وثائق من دار الوثائق المركزية بالخرطوم .

(أ) تقارير المخابرات .

(ب) مراسلات قصر الحاكم العام وتقاريره Palace.

(ج) وقائع مجلس الحاكم العام Genco.

(د) ملفات الأمن Security.